حكايات قبل النوم
(٤)

كَفى بالأجَلِ حَارِساً!!

الدكتور
محمد عمر الحاجي

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

جَعَلْتُ اللهَ لكَ كفيلاً؟!

أُتي (الحجّاج بن يوسف الثقفي) بقومٍ ممّن خرجوا عليه ، فأمر بهم فقُتِلوا ، وأُقيمَتِ الصلاةُ ، وقد بقي منهم رجلٌ واحدٌ .

فقال الحجّاج لعَنْبَسَةَ : انصرفْ بهذا مَعَكَ ، واغْدُ به عليّ .

قال عنبسةُ : فخرجتُ به ، فلما كان في بعضِ الطريق ، قال لي : هل فيكَ خيرٌ يا فتىٰ؟

قلتُ : وما ذاك؟

قال : إني ـ والله العظيم ـ ما خرجتُ علىٰ المسلمين قطُّ ، ولا استحلَلْتُ قِتالَهم ، وعندي ودائعُ وأماناتٌ ، فتُخلّي عنّي ، حتىٰ آتيَ أهلي ،

فأردَّ علىٰ كلِّ ذي حقٍّ حقَّه ، وأجعل لك عَهْدَ اللهِ عز وجل أني أَرْجِعُ إليكَ من غدٍ .

... فتعجَّبْتُ منه ، وتضاحَكْتُ .

فمضينا ساعةً ، فأعاد القولَ عليَّ ، فقلتُ له : اذهبْ ، فذهب .

فلما توارىٰ عنِّي شَخْصُه ، أُسْقِطَ في يَدِي ، فأتيتُ أهلي وأخبرتُهم الخبرَ ، فقالوا : لقد اجترأْتَ علىٰ (الحجّاج)!

وبتُّ بأطولِ ليلةٍ... ، فلما طَلَعَ الفجْرُ ، إذا أنا به قد جاء!

فقلتُ : أَرَجَعْتَ؟

فقال : سبحانَ اللهِ ، جعلتُ اللهَ عز وجل لكَ كفيلاً ، ثم لا أَرْجِعُ؟

فانطلقتُ به إلىٰ (الحجّاج) .

فقال : أينَ أسيرك؟

فقلتُ : بالبابِ ، أصلَحَ الله الأميرَ ، وقد كانت لي وله قصّةٌ .

قال : ما هي؟

فأخبرتُه الخبرَ ، وأدخلتهُ عليه .

فقال : أتحبُّ أن أَهَبَهُ لك؟

قلت : نعم .

قال : هو لك .

فأخرجتُه معي ، وقلتُ له : خُذْ أيَّ طريقٍ شئتَ...

فرفع طَرْفَهُ ـ بصره ـ إلىٰ السماءِ ، وقال : الحمد لله ، وانصرف ، وما كلّمني بكلمةٍ!

فقلتُ في نفسي : هذا مجنون .

... فلما كان من غدٍ ، أتاني ، فقال : يا هذا! جزاكَ اللهُ خيراً ، واللهِ ما جهلتُ ما صنعتَ ، ولكنّي كرهتُ أن أُشْرِكَ في حمدِ اللهِ تعالىٰ أَحَداً!!

نهاية الغشّ!!

في مسند الإمام أحمد هذه الحكايةُ النبويّةُ الهادفة :

قال رسولُ الله ﷺ :

« إن رجلاً حَمَلَ معه خَمْراً في سفينةٍ يبيعُه ، ومعه قردٌ .

قال : فكانَ الرجلُ إذا باعَ الخمرَ شابَهُ بالماءِ[1] ، ثم باعَهُ .

قال : فأخذ القردُ الكِيْسَ ـ الكيس الذي فيه الدنانير ـ فصَعِدَ به فوقَ الدّقْل[2] .

---

(١) أي : خلطه بالماء .

(٢) هو : خشبة يمتدّ عليها شراع السفينة .

قال : فجعل يطرحُ ديناراً في البحرِ ، وديناراً في السفينة ، حتىٰ قَسَمَهُ!! » .

* * *

كفىٰ بالأَجَلِ حارساً!!

كانت زوجةُ ناصرِ الدولةِ (فاطمة بنت أحمد الكردي) ، قد اتَّهَمَتْ عاملاً كان لها ، يُقال له ابن أبي قبيصة ، من أهل المَوْصِل ، بخيانةٍ في مالِها ، فقبضَتْ عليه ، وحبسَتْهُ في قلْعَتِها .

ثم رأتْ أن تَقْتُلَه ، فكتبتْ إلىٰ المتوكِّلِ بالقلعةِ بقتْلِهِ .

... فوَرَدَ عليه الكتابُ ، وكانِ لا يُحسِنُ أن يقرأَ ولا أن يَكْتبَ ، وليس عنده مَنْ يقرأ أو يكتبُ ، إلا ابنَ أبي قبيصة .

.. فدَفَعَ الموكَّل به الكتابَ إليه ، وقال له : اقرأْهُ عليَّ ، فلما رأىٰ فيه الأمرَ بقتلِه ، قرأَ الكتابَ بأسْرِهِ

إلا حديثَ القتلِ ، وردَّ الكتابَ عليه...

قال ابن أبي قبيصة : ففكّرتُ ، وقلت : أنا مقتول ولا آمَنُ أن يَرِدَ كتابٌ آخرُ في هذا المعنىٰ ، ويتفقَ حضورُ من يقرأُ ويكتبُ غَيري ، فينفّذ فيَّ الأمرَ... .

وسبيلي أن أحتالَ بحيلةٍ ، فإن تمَّتْ سلمتُ ، وإن لم تتمَّ ، فليس يَلْحَقُني أكثرُ من القتلِ الذي أنا حاصلٌ فيه!

قال : فتأمّلتُ القلعةَ ، فإذا فيها موضعٌ يمكنني أن أَطْرَحَ نفسي منه إلىٰ أسفلِها ، إلاّ أنَّ بينَه وبين الأرض أكثرَ من ثلاثةِ آلافِ ذراعٍ ، وفيه صَخْرٌ ، لا يجوز أن يَسْلَمَ من يقعُ عليه... .

قال : فلم أَجْسرْ .

ثم وَلَّد لي الفكْرُ أن تأمَّلتُ الثلجَ قد سَقَطَ عدّةَ ليالٍ ، وقد غطّىٰ تلكَ الصخورَ ، وصار فوقها منه

أمرٌ عظيم ، يجوز إن سقطتُ عليه ، وكان في أجلي تأخيرٌ ، أنْ تنكسر يدي أو رجلي وأَسْلَمُ...

قال : وكنتُ مقيَّداً ، فقمتُ لمّا نامَ الناسُ ، وطرحتُ نفسي من الموضع ، قائماً علىٰ رجلي ، فحين حصلتُ في الهواء ، ندمتُ وأقبلتُ أستغفرُ اللهَ ، وأتشهَّدُ ، وأغمضتُ عيني حتىٰ لا أرىٰ كيف أموتُ...!

وجمعتُ رجلي بعضَ الجمعِ ، لأني كنتُ سمعتُ قديماً أنّ من اتَّفق له أن يسقط قائماً من مكانٍ عالٍ ، إذا جمع رجليه ، ثم أرسلهما إذا بقي بينه وبين الأرض ذراعاً أو أكثر قليلاً ، فإنه يَسْلَمُ ، وتنكسرُ حدّة السقطة ، ويصير كأنّه بمنزلةِ مَنْ سَقَطَ من ذراعين!!

قال : ففعلتُ ذلك ، فلما سقطتُ إلىٰ الأرضِ ، ذهب عني أمري ، وزالَ عقلي ، ثم عادَ!

فلم أجدْ ما كان ينبغي أن يَلْحَقَني من ألمِ السقطةِ من ذلك المكان .

فأقبلتُ أجسُّ أعضائي شيئاً فشيئاً ، فأجدُها سالمةً ، وقُمتُ وقَعَدْتُ ، وحرّكتُ يدي ورِجلَي ، فوجدتُ ذلك سليماً كلَّه ، فحمِدْتُ اللهَ تعالىٰ علىٰ هذا الحال .

وأخذتُ صخرةً ، وكان الحديدُ الذي في رجلي قد صارَ كالزُّجاجِ لشدةِ البردِ!

قال : فضربتُهُ ضرباً شديداً ، فانكسر ، وطنّ الجبلُ ، حتىٰ ظننتُ أن سيسمعُه مَنْ في القلعة لعِظَمِهِ ، فينتبهون علىٰ صوتِه...

فسلّم اللهُ عز وجل من هذا أيضاً ، وقمتُ أمشي في الثلج...!

فمشيتُ طويلاً ، ثم خفتُ أن يرىٰ أثري من غدٍ في الثلج علىٰ الطريق ، فيطلبونني ، ويتبعونني ،

فلا أفوتُهم ، فعَدَلْتُ عن الطريق ، إلىٰ نهر يُقال له : الخابور ، فلما صرتُ علىٰ شاطِئِه ، نزلتُ في الماء إلىٰ رُكْبتي ، وأقبلتُ أمشي كذلك فَرْسَخاً ، حتىٰ انقطع أثَري ، وخفي مكانُ رجلي ، ثم خرجتُ لما كادت أطرافي تسقطُ من البردِ ، فمشيتُ علىٰ شاطئِه ، ثم عُدْتُ أمشي فيه..

وربما حصلتُ في موضعٍ لا أقدر علىٰ المشي فيه ، لأنه يكون جرفاً ، فأسبحُ ، فأمشي علىٰ ذلك أربعَ فراسخِ ، حتىٰ حصلتُ في خيمٍ فيها قومٌ... .

فأنكروني ، وهمّوا بي ، فإذا همُ أكرادٌ...

فقصصتُ عليهم قصَّتي ، واستجرتُ بهم ، فرَحموني وغَطَّوني ، وأوقدوا بين يديّ ناراً ، وأطعموني ، وسَتروني... .

وانتهىٰ الطلَبُ من غدٍ إليهم ، فما أَعْطَوا خبري أحداً .

فلما انقطع الطَّلَبُ ، أوصلوني حتىٰ دخلتُ (الموصلَ) مستتراً...

وكـان نـاصـر الـدولـة ببغـداد ـ إذْ ذاك ـ ، فانحدرتُ إليه ، فأخبرتُهُ بخبري كلِّه ، فعصمني من زوجتِه ، وأحسنَ إليَّ ، وصرفني!!!

* * *

أنتمُ البركةُ حقاً...!!

روت السيدةُ عائشة هذه الحكاية :

خرجنا مع رسولِ اللهِ ﷺ في بعض أسفارِه ، حتىٰ إذا كنا بالبيداءِ ، أو بذاتِ الجيشِ ، انقطع عِقْدٌ لي ، فأقام رسول الله ﷺ علىٰ التماسِهِ ، وأقام الناسُ معه ، وليسوا علىٰ ماءٍ ، وليس معهم ماء..

فأتىٰ الناسُ أبا بكرٍ ، فقالوا : ألا ترىٰ ما صنعتْ عائشةُ؟! أقامتْ برسول اللهِ وبالناسِ ، وليسوا علىٰ ماءٍ ، وليس معهم ماءٌ...

فجاء أبو بكرٍ ، ورسولُ الله ﷺ واضعٌ رأسَه علىٰ فَخِذِي قد نامَ ، فقال : حبستِ رسولَ اللهِ والناس ، وليسوا علىٰ ماءٍ؟

فعاتبني أبو بكرٍ وقال ما شاءَ اللهُ أن يقولَ ، وجعل يَطْعنُ بيده في خاصِرَتي ، فلا يمنعُني من التحرُّكِ إلاّ مكانُ رسولِ الله ﷺ علىٰ فخِذي ، فقام رسولُ الله حين أصبحَ علىٰ غيرِ ماءٍ ، فأنزل اللهُ آيةَ التيمّمِ ، فتيمَّموا...

فقال (أُسيدُ بن حُضَير) : جزاكِ اللهُ خيراً ، فوالله ما نزل بكِ أمرٌ قطُّ إلا جعلَ اللهُ لكِ منه مَخْرجاً ، وجعل للمسلمين فيه بركةً...

والحمد لله رب العالمين